تفسير ابن كثير

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقامهم وفعالهم وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص عليهم لعائن الله فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولون راعنا ويورون بالرعونة كما قال تعالى : { من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا } وكذلك جاءت الأحاديث بالأخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون السام عليكم والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ [وعليكم] وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا فقال { يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم } وقال الإمام أحمد : أخبرنا أبو النضر أخبرنا عبد الرحمن بن ثابت أخبرنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر Bهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : [بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم] وروى أبو داود عن عثمان بن أبي شيبة عن أبي شيبة عن أبي النضير هاشم أخبرنا ابن القاسم به [من تشبه بقوم فهو منهم] ففيه دلالة على : النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقر عليها وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبي أخبرنا نعيم بن حماد أخبرنا عبد الله بن المبارك أخبرنا مسعر عن معن وعون أو أحدهما أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال اعهد إلي فقال : إذا سمعت الله يقول : { يا أيها الذين آمنوا } فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه وقال الأعمش عن خيثمة قال ما تقرؤون في القرآن { يا أيها الذين آمنوا } فإنه في التوراة ياأيها المساكين وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس { راعنا } أي أرعنا سمعك وقال الضحاك : عن ابن عباس { يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا } قال : كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلّم : أرعنا سمعك وإنما راعنا كقولك عاطنا وقال ابن أبي حاتم وروي عن أبي العالية وأبي مالك والربيع بن أنس وعطية العوفي وقتادة نحو ذلك وقال مجاهد : { لا تقولوا راعنا } لا تقولوا خلافا وفي رواية لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك وقال عطاء لا تقولوا { راعنا } كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها وقال الحسن : { لا تقولوا راعنا

} قال الراعن من القول السخري منه نهاهم ا أن يسخروا من قول محمد صلى ا عليه وسلّم وما يدعوهم إليه من الإسلام وكذا روي عن ابن جريج أنه قال مثله وقال أبو صخر : { لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا } قال : كان رسول ا صلى ا عليه وسلّم إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فيقول أرعنا سمعك فأعظم ا رسوله صلى ا عليه وسلّم أن يقال ذلك له وقال السدي : كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبي صلى ا عليه وسلّم فإذا لقيه فكلمه قال : أرعني سمعك واسمع غير مسمع وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا فكان ناس منهم يقولون : اسمع غير مسمع غير صاغر وهي كالتي في سورة النساء فتقدم ا إلى المؤمنين أن لا يقولوا راعنا وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا قال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك لنبيه صلى ا عليه وسلّم نظير الذي ذكر النبي صلى ا عليه وسلّم راعنا لأنها كلمة كرهها ا تعالى أن يقولها لنبيه صلى ا عليه وسلّم نظير الذي ذكر عن النبي صلى ا عليه وسلّم أنه قال : [لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبلة ولا تقولوا عبدي ولكن قولوا فتاي] وما أشبه ذلك وقوله تعالى : { ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم } يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر ا تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينهم ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد صلى ا عليه وسلّم حيث يقول تعالى : { وا يختص برحمته من يشاء وا ذو الفضل العظيم }